الدراسات اللغوية لأسلوب القرآن

١ ـ مجاز القرآن

كتاب المجاز يمثل التيار اللغوى للتفسير، وتوجد به بعض آثار البحث البيانى ـ الذى اتسع من بعد ـ وهو يهمنا من هذه الناحية لأنه يحدد بدء الدراسات النقدية من دراسات القرآن نفسها ، وسنتناول الكتاب ببعض التفصيل .

تعريف بالكتاب :

أول من يذكره من كتاب التراجم التى بين أيدينا صاحب «الفهرس» ، ثم ذكره الخطيب فى «تاريخ بغداد» ، وابن الأنبارى «فى نزهة الألباء» وياقوت فى «إرشاد الأريب» وابن خلكان فى «الوفيات» ، والسيوطى فى «بغية الوعاة»

ويذكر ياقوت أن أبا عبيدة ألف المجاز عام ثمان وثمانين ومائة من هجرة النبى (١٨٨ هـ) يذكر على لسان أبى عبيدة «... أرسل إلىّ الفضل بن الربيع فى الخروج إليه سنة ثمان وثمانين ومائة . فقدمتُ إلى بغداد واستأذنت عليه ، فأذن لى وهو فى مجلس له طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه، وفى صدره فرش عالية لا يرتقى إليها إلا على كرسى ... ثم دخل علىّ رجل فى زى الكتاب له هيئة فأجلسه إلى جانبى وقال له : أتعرف هذا قال: لا. قال : هذا أبو عبيدة علاّمة أهل البصرة ، أقدمناه لنستفيد من علمه ، فدعا له الرجل وقرظه لفعله هذا ، وقال إنى كنت إليك مشتاقاً ، وقد سألت عن مسألة . أفتأذن لى أن أعرفك إياها ؟ فقلت : هات ، قال : قال الله عز وجل : ﴿طلعها كأنه رؤس

الشَّياطِين)[1] وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله ، وهذا لم يعرف ، فقلت ، إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرئ القيس[2] :

أيَقْتُلُنِي والمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ومَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأنْيابِ أغْوالِ

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به . فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل ، وعزمت فى ذلك اليوم أن أضع كتاباً فى القرآن فى مثل هذا وأشباهه وما يحتاج إليه من علمه ، فلما رجعت إلى البصرة عملت كتابى الذى سميته " المجاز "»[3] .

ويذكر ياقوت أن أبا عبيدة ألف كتاباً آخر هو « غريب القرآن » وهذا الكتاب الأخير مذكور فى الفهرست هكذا: « قرأت أنا بخط أبى عبد الله بن مقلة قال أبو العباس ثعلب : كان أبو عبيدة يرى رأى الخوارج وإذا قرأ القرآن قرأه نظراً ، وله " غريب القرآن " و " مجاز القرآن " » . ثم يذكر بقية كتبه ويذكر ابن خلكان أنه ألف « مجاز القرآن » و « غريب القرآن » ، لكن السيوطى يخالفهما ، ويخالف ياقوت فيذكر أن أبا عبيدة ألف المجاز فى غريب القرآن ، ولم يذكر كتاب غريب القرآن ، فكأنه أدمج الكتابين فى كتاب واحد[4] .

ونلاحظ فى ترتيب ابن النديم وابن خلكان وياقوت ورود اسمى الكتابين متتاليين ، ولعل هذا الاختلاف راجع إلى الالتباس أو التصحيف ، أو إلى وحدة التسمية ، أى أن اسمى مجاز القرآن ، وغريب القرآن كليهما لكتاب واحد، ويرجح الاحتمال الأخير موضوع الكتاب الذى بين أيدينا باسم « كتاب

(١) ٦٥ الصافات (٣٧) .
(٢) شرح ديوان امرئ القيس ٦٠ ط هندية سنة ١٩٠٦ م .
(٣) الجزء السابع ط . أوربا - ص ١٦٧ .
(٤) بغية الوعاة ٣٩٥ .

«المجاز فى تفسير غريب القرآن»(١)، ويتبين لقارئه أنه يبحث فى معانى غريب اللغة واللفظ، وقد دعا هذا التعارض الظاهرى بين الاسم والموضوع إلى أن يظن أحد الباحثين فى تاريخ البلاغة (٢) أن ما بين أيدينا هو غريب القرآن لا مجاز القرآن . ويرجح القول بأن الكتاب هو المجاز دوران كلمة مجازفيه من أوله إلى آخـــره . ومن الرواية المذكورة فى سبب تأليفه يتضح أن الكتاب لا يقتصر على شرح الغريب . وقد فهم أبو عبيدة لفظ المجاز فى مدلوله الأصلى وهو العدول عن استعمال اللفظ أو الألفاظ عن المعنى البسيط المتداول إلى معنى آخر يمت إليه بصلة ما . وإذا أردنا تتبع وقفاته عند استعمال كلمة مجاز وجدناه يدور بالكلمة فى نواح متعددة . فقد يجرى إطلاق لفظ مجاز على استعمال بلاغى ، أو فنون أسلوبية تضمنتها بحوث البلاغة من بعد . وقد يكون موقع اللفظ فى استعمال لغوى ، يتصل بمدلول الكلمة وتغيره بتغير بنائها ، أو موقعها من الكلام . ثم لا يخلو إطلاقها من تغير فى الإعراب مما يدخل أحياناً فى دائرة النحو .

تحليل الكتاب :

يحسن بنا أن نقف وقفة قصيرة أمام مجهود أبى عبيدة لاعتبارات كثيرة أحدها أنه أول دراسة تصلنا فى هذا الميدان اللغوى فى القرآن ، ثانيها أنه يعتبر مرحلة أولية من مراحل تطور النقد والدراسات البيانية لأسلوب القرآن ، وفى تطور الأدب العربى عامة . وثالثها أن هذا الكتاب كان مرجعاً لكثير من الدراسات اللغوية والأدبية التى تلت ، لأن الرجل علم من أعلام اللغة والأدب فى القرنين الثانى والثالث ، ولا يصح إهمال إنتاجه فى دراسة متعلقة بالقرآن .

يقدم أبو عبيدة لكتابه بمقدمة فى بحوث لغوية عامة فى القرآن ، يبدؤها

(١) مخطوط مصور بكلية الآداب بالإسكندرية تحت رقم ٣١٨٤ ب .

(٢) سيد نوفل فى نشأة البلاغة / ١٨١ .

ببحث كلمة « قرآن » وله رأى خاص فى اشتقاق هذه الكلمة ينقله عنه المتأخرون ، وهو قوله : « إنما سمى قرآناً لأنه يجمع السور فيضمها ، وتفسير ذلك آية فى القرآن ، قال الله جل ثناؤه . (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَه وقُرآنَه)» [1] ويستشهد عليه من كلام العرب .

ويدلف إلى نص القرآن وما يتضمنه من فنون الكلام ، منبهاً إلى أن القرآن يشابه فى نظمه كلام العرب فيقول : « وفى القرآن مثل ما فى كلام العرب من وجوه الإعراب والمعانى . » . إلخ ويذكر تلك الوجوه مع أمثلة لها . ويتعرض لها بالتفصيل فى الكتاب ، وسنبينها فى مواضعها .

وبعد أن ينتهى من تلك المقدمة العامة التى رسم فيها منهجه ، ووضع فكرته التى دار عليها الكتاب ، ثم خط الخطوط الأولى التى ستجرى عليها كلمة (مجاز) ، بعد هذا كله يبدأ بتناول السور والآيات تناولا تنازليًّا يبدأ بسورة الفاتحة. ويتبع فى تفسيره نظاماً معيناً لا يكاد يحيد عنه نلخصه فيما يلى :

١ يبدأ شرح الآية بآية أخرى ما أمكن .

٢ — يتبعها بحديث فى نفس المعنى .

٣ — ثم يتبعهما بالشاهد الشعرى القديم ، أو بكلام العرب الفصيح ، كالخطب والأمثال والأقوال المأثورة . ويحرص أبو عبيدة على أن يؤكد دائماً صلة أسلوب القرآن وفنون التعبير فيه بأساليب العرب وفنونهم ، فيذكر دائماً فى ختام كلامه أن « العرب تفعل هذا » .

فكرة المجاز واستعمال أبى عبيدة للفظ فى الكتاب :

لا يخامر الشك من يراجع الكتاب فى أن المؤلف كان يدير لفظ مجاز على أمر فى نفسه ، وأنه التزم فكرة بعينها كانت تشغل ذهنه ، فلم تكن هذه الكلمة

(١) مجاز القرآن مقدمة .

تعبر عن مدلول كلمة تفسير[١] ، أو كلمة معنى بصفة مطلقة ، وأن هذا لا ينفى إطلاقها أحياناً فى ذلك المعنى[٢] ،ويمكن الاهتداء إلى فكرة المجاز فى الكتاب بمراجعة معنى الكلمة اللغوى .

وجاز فى اللغة بمعنى قطع جوز الفلاة ، والمجازة الطريقة ، والمادة ومشتقاتها تعنى الانتقال بوجه عام ، ومنه التجوز فى الشيء ، الترخص فيه .

وعلى المعنى السابق يمكن أن يبنى فهم أبى عبيدة للفظ وهو الانتقال فى التعبير من وجه لآخر كالانتقال فى التشبيه من وجه الشبه المعروف إلى وجه آخر غير معروف ، أو مألوف كما فى الآية[٣] : « تخرج فى أصل ..» وعلى أساس أن هذا الانتقال من تعبير قريب إلى تعبير بعيد غير معهود لغير العربى الأصيل، يرى أبو عبيدة أن فى أسلوب القرآن مجازاً ،وانتقالا على طريقة العرب فى الانتقال، أو الرخصة فى التعبير . وجدير بالذكر أن سائل أبى عبيدة من طبقة الكتاب المحدثين فى الثقافة العربية ، والذين تعلموا اللغة دراسة ، ولم يلقنوها عن ألسنة أصحابها ، وكل متعلم على هذه الطريقة المدرسية يهمه أن تجرى الأمور على القواعد المدروسة ، حتى إذا رأى خرقاً ظاهرياً ، أو شاذاً عن القاعدة تساءل ويريد أبو عبيدة أن يكفى الكاتب المحدث وغيره من طبقته وأمثاله هذا التساؤل فى مخالفات الأسلوب القرآنى للقواعد العامة (المدروسة) للغة . ويعرض للقرآن بنصه ، آية آية ، ويتكلم عن المجاز فيتناوله تناولاً شاملاً واسعاً يضم الفنون التى ذكرها فى المقدمة ، بل يتجاوزها أحياناً فيجعل مدلولها أوسع أفقاً .

وصاحب الكتاب صريح فى أن العرب لم يكونوا فى حاجة إلى مثل كتابه لفهم المجاز فى القرآن ، لأنهم أعرف بفنون القول فى لغتهم ، ومن ثم فى القرآن الذى جاء على أصول هذه اللغة عربياً مبيناً .فالفكرة التى تراود أبا عبيدة وهو

---

(١) راجع مقال تفسير لأمين الخولى فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) الصافات ٦٥ : (إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم . طلعها كأنه رءوس الشياطين) .

يؤلف كتابه كانت فكرة مدرسية ، يحاول أن يضع أمام طبقة المستعر بين صوراً من التعبير فى القرآن وما يقابله من التعبير فى الأدب العربى شعراً ونثراً، ويبين ما فيها من التجاوز أو الانتقال من المعنى القريب أو التركيب المعهود للألفاظ والعبارات إلى معان وتراكيب أخرى اقتضاها الكلام .

فكلمة مجاز عنده إذاً ليست مجرد مقابل لكلمة تفسير [1] ، ولكى نثبت هذا نحب أن نعطى فكرة عامة عن دوران معنى الكلمة ليتضح الأمر .

(١) قد يكون التحول فى مدلول الكلمة تحولاً لغوياً :

قد يتحول المعنى من مدلول صيغة إلى مدلول صيغة أخرى ، من المصادر إلى الصفات مثل قوله تعالى : (ولكنَّ البرَّ مَنْ آمنَ باللهِ واليوْم الآخر) ، يقول: فالعرب تجعل المصادر صفات، فمجاز البرّ هنا مجاز الصفة لمن آمن بالله .

وقد يتحول مدلول الفاعل إلى المفعول ، أو العكس مثل قوله تعالى : (ما إنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بالعُصْبَةِ) والعصبة هى التى تنوء بالمفاتح .

ومن مجاز ما يقع المفعول إلى الفاعل قال : (كمَثَلِ الَّذِى ينعَقُ بما لا يَسْمَعُ) والمعنى على الشاة المنعوق بها وحُوِّل على الراعى الذى ينعق بالشاة . وقال: (والنهارَ مُبصراً) له مجازان أحدهما : أن العرب وضعوا أشياء من كلامهم فى موضع الفاعل والمعنى أنه مفعول لأنه ظرف ينعل فيه غيره، ولأن النهار لا يُبْصِرُ ولكنه يُبْصَرُ فيه الذى يُنْظر . وفى القرآن (فِى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ) وإنما يرضى بها الذى يعيش فيها . . . إلخ . ومن ذلك قوله تعالى: (خُلِقَ الإنْسَانُ من عَجَلٍ) يقول: مجازُه مجازُ خَلْقِ العَجَلِ من الإنسان ، وهو العَجَلةُ والعرب تفعل هذا .

ومنه أيضاً تحول مدلول الأدوات والحروف ، يقول : ومن مجاز الأدوات اللواتى لمن معان فى مواضع شتى ، فتجىء الأداة تتفق فى بعض تلك المعانى، قال :

---

(١) انظر مادة تفسير للأستاذ أمين الخولى – دائرة المعارف الإسلامية .

(أَنْ يَضْرِبَ مثلاً ما بعُوضَةً فما فوقَها) معناه فما دونها ، قال : (والأَرْضَ بعدَ ذلكَ دحَاها) معناه مع ذلك .

(ب) الانقلاب فى المدلول إلى الضد ، فقد ينقلب معنى وراء إلى قدام فى قوله تعالى : (ومنْ وراثِهم جَهَنَّم) مجازه قدامه وأمامه ، يقال إن الموت من ورائك أى قدامك . قال :

أتوعدُنى وراء بَنى رِياحٍ كذَبْتَ لَتَقْصُرَنَّ يداكَ دُونى

أى قدام بنى رياح .

(ح) التغير فى الصيغة . بزيادة فى الحروف كأن يكون مدلول مَطَرَ غير مدلول أَمْطر فى تفسيره لقوله تعالى : (أَمْطرْ علينا حجارةً منَ السماء) مجازه أن كل شيء من العذاب فهو أمطرت بالألف ، وإن كان من الرحمة فهو مطَرْت .

(د) التغير فى مدلول الاستفهام فى قوله تعالى : (أتجعَلُ فيها منْ يُفْسدُ فيها) جاءت على لفظ الاستفهام ، والملائكة لم تستفهم ربها . وقد قال تبارك وتعالى : (إنّى جاعلٌ) ولكن معناها الإيجاب أى أنك ستفعل ، وقال جرير فأوجب ولم يستفهم :

ألستُمْ خيرَ منْ ركِبَ المطَـايا وأنْدَى العالمينَ بُطُونَ رَاحِ

وتقول أنت تضرب الغلام على الذنب : ألست الفاعل كذا ، ليس باستفهام ولكن تقرير . وزعم أبو عبيدة فى مواضع كثيرة بصيغة أفعل فى القرآن مثل قوله تعالى : (وهُوَ أهونُ عليه) مجازه مجاز ذلك هيّن عليه ، لأن أفعل يوضع موضع الفاعل . قال :

لعمْرُك ما أدرى وإنّى لأَوْجَلُ على أيّنا تَأْتى المنيّةُ أوّلُ

إنى لأوجل أى وجل ، وفى الأذان . الله أكبر . الله أكبر

هكذا قد تتغير صيغة التفضيل فتصح مجرد فاعل .

٢ ــ ويتحول المعنى تحولاً بلاغيًّا :

على سبيل الإيضاح أو التأنق فى التعبير والتفنن فى القول ، فتجرى كلمة مجاز على مجموعة من المعانى اصطلح البلاغيون من بعد على إدراجها تحت تعريفات خاصة فى علم البلاغة من هذه التعريفات ما نشأ أو قوى فى ظل القرآن والدراسات القرآنية الأولى ومنها هذا الكتاب . ومنها :

(ا) التقديم والتأخير ــ يذكره أبو عبيدة فى المقدمة فيقول : « من مجاز المقدم والمؤخر قال : (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّتْ وربَتْ) ، أراد ربتْ واهتزّتْ ، وقال : (ولَمْ يَكَدْ يراها) أى لم يرها ولم يكد . و (بربِّهِمْ يَعْدِلُونَ) مجازه يعدلون بربهم ، أى يجعلون له عدلا ، وقال : (أَحْسَنَ كلَّ شَىْءٍ خَلْقَه) مجازه أحسنَ خَلْقَ كل شىء . والعرب تفعل هذا . يقولون ويقدمون ويؤخرون :

كأنَّ هِنْدًا ثنايَاهَا وبهْجتَها يومَ التقَيْناعلى أذحالِ دَبَّابِ[1] »

(ب) التشبيه ــ وأول ما ترد هذه الكلمة على لسان أبى عبيدة فى كتاب المجاز عند شرحه لقوله تعالى : (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ) ، كناية وتشبيه .

(جـ) التمثيل ــ وهو يعنى عنده هنا التشبيه أو تشبيه التمثيل ــ قال فى تفسير قوله تعالى : (عَلى شَفاجُرُفٍ هَارٍ) ، مجازه هائر . . . ومجاز الآية (أفمنْ أسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خيرٌ أم مَنْ أسَّسَ بُنيانه عَلى شَفَاجُرُفٍ هارٍ فانهارَ بهِ فى نارِ جَهنَّم) مجاز تمثيل لأن ما بناه على التقوى أثبت أساساً من البناء الذى بنوه على الكفر والنفاق ، وهو على شفا

(١) دبّاب أرض . وأذحال جمع ذحل وهو نقب ضيق فم يتسع أسفله حتى يمشى فيه ورما أميت الذر .

« قال الأزهرى » « بالخنصاء ، مل يقال له الدباب وبحذائه ذحلان كبيرة » (اللسان ١ / ٣٥٩)

« يروى البيت فى اللسان ــ لما التقينا على أذحال دباب » (اللسان ١ / ٣٦٠) .

جرف وهو ما يجرف من سيول الأودية فلا يثبت البناء عليه »[١] .

ويجدر بنا أن ننبه إلى معرفة أبي عبيدة بالتشبيه والتمثيل باعتبارهما لونين من ألوان التعبير ، ولم يهتم في الآية بكلمة هائر وحدها بل اهتم بالصورة البيانية بتمامها .

وفهمه للصورة البيانية بوجه عام لا يتعدى الفهم اللغوي ، فهو يتعرض لكل الفنون البيانية المتعلقة بالأسلوب ، ويعتبرها من المجاز اللغوي .

(د) الاستعارة :

يطلق كلمة مجاز في معنى الاستعارة . مثل قوله في تفسير قوله تعالى : (يثبت به الأقدام) مجازه يفرغ عليهم الصبر وينزله عليهم فيثبتون لعدوهم . وفي قوله تعالى : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) مجازه ما ظفرت ولا أصبت ولكن الله أظفرك وأصاب لك ونصرك ، ويقال : رمى الله لك أي نصرك وصنع لك . وفي تفسيره لقوله تعالى : (إلا هو آخذ بناصيتها) مجازه إلا هو في قبضته وملكه وسلطانه ، وهو لا ينص على الاستعارة كما نص على التشبيه والمثل والتمثيل .

وكثير من الاستعارات والتشبيهات في القرآن تدخل نطاق الحرج لأنها تتعلق بالذات أو بالعقيدة ، أو بصور البعث . ووقف أبي عبيدة من هذه جميعاً موقف اللغويين ، يأخذ بظاهر القول إلى أمد محدود غايته المعنى اللغوي القريب ، وهو المذهب الذي عرفوا به ولاءهم عليه المعتزلة . ولكنه قد يعمد أحياناً إلى التحلل من التشبيه ، ويدور حول بعض عبارات القرآن حتى لا تدخله في دائرة الحرج أو التجسيم فيفسر قوله تعالى : (يد الله مغلولة) بقوله : أي خير الله .

(هـ) الكناية :

ينص على الكناية في أكثر من موضع ، والفعل كنى يستعمله بمعناه اللغوي

(١) مجاز القرآن ص ٧٠ ب ، ٧١ ا .

أى أخفى أو أضمر ، واستعماله للكلمة فى الدلالة على فن من فنون الأسلوب قريب من استعمال البلاغيين للدلالة على الاصطلاح البلاغى المعروف « الكناية » مثل قوله فى الآية : (نساؤكم حرث لكم) كناية وتشبيه ، وفى قوله : (أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط) كناية على إظهار لفظ قضاء الحاجة من البطن . وكذلك قوله تبارك وتعالى : (أو لامستم النساء) كناية عن العشيان ، وكذلك — سوءاتهما — كناية عن فروجهما وهذه كلها قريبة من الاستعمال البلاغى .

وقد يستعمل اللفظ — كناية ، وكنى — فى معنى الضمير وأضمر ، فى تفسيره للآية : (إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) ، فظلت أعناقهم إنما هى من صنعة الكناية عن القوم التى فى آخر الأعناق — يقصد ضمير الجماعة هم — يقول فكأنه فى التمثيل فظلت الأعناق — أعناق القوم — خاضعين ، فالقوم فى موضع هم ، وفى قوله تعالى : (فعموا وصموا كثير منهم) مجازه على وجهين أحدهما أن بعض العرب يظهرون كناية الاسم فى آخر الفعل مع إظهار الاسم الذى بعد الفعل . كقول عمرو الهذلى :

« أكلونى البراغيث »

ويتعرض أبو عبيدة لنكت عامة فى الأساليب تأتى عرضاً فى تفسيره فيعرض للإيجاز والإطناب ، ويشير إلى ما فى بعض الآيات من الحذف وما فيها من الزيادة ، وقد تنبه إلى نوعى الإيجاز أى الإضمار — القصر — والحذف . وقد يختلط مجاز المضمر بمجاز الحذف مثل ما فى قوله تعالى : (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق) يقول مجازه مجاز المختصر المضمر فيه ، وهو معنى ويقولون — ذوقوا عذاب الحريق . والعرب تفعله . قال النابغة [1] :

(١) الديوان ط مصر ص ٨٥ .

كَأَنَّكَ من جِمالِ بنى أُقَيشٍ يُقَعقَعُ خَلْفَ رِجْلَيْهِ بِشَنّ

ويرى أبو عبيدة أن بعض الحروف قد تزاد فى القرآن ، وهذا الرأى يخالفه فيه بعض اللغويين الذين جاءوا بعده كالمبرد الذى لا يرى فى أسلوب القرآن زيادة[1] ، ومثال ذلك فى كتاب المجاز ما يراه من زيادة إذ فى قوله تعالى : (وَإِذْ قالَ اللهُ يا عِيسَى) مجازه وقال الله ياعيسى . وإذ من حروف الزوائد . ويرى أن من قد تزاد كذلك[2] .

ومن الفنون البلاغية الأخرى التى التفت إليها ،واعتبرها من المجاز « الالتفات» ويذكره فى المقدمة فيقول : ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت هذه إلى مخاطبة الغائب .قال الله : (حتى إذَا كُنْتُمْ فى الفُلْكِ وجَرَيْنَ بِهِمْ) أى بكم ، ومما جاء خبرًا عن الغائب ثم خوطب الشاهد .قال : (ثم ذهَبَ إلَى أَهْلِه يتمَطَّى ، أَوْلَى لكَ فأَوْلَى) و (الٓمٓ ذلِكَ الكتابُ) ذلك الكتاب معناه القرآن وقد يخاطَبُ العربى الشاهد فتظهر له مخاطبة الغائب . قال خفاف بن ندبة[3] :

وإنْ تَكُ خَيْلِى قد أُصِيبَ صَمِيمُها فعَمْدًا على عينى تَيَمَّمْتُ مَالِكاً

هذا بعض ما تنطوى عليه مرامى كلمة مجاز فى كتاب أبى عبيدة ، وهذه المعانى السابقة غالبة على غيرها من الاستعمالات ، وخاصة استعمالها فى معنى — تفسير — وقد تأتى بهذا المعنى فى أحوال غير قليلة كما يفسر قوله تعالى : (ولا طائِرٍ يطِيرُ بجَنَاحَيْه إلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُم) قال : مجازه إلا أجناس .وقوله

(١) انظر الشريف الرضى فى تفسيره المسمى أسرار التنزيل ص ١٦٥ .

(٢) كتاب (مجاز القرآن) مخطوط ص ٦٢ .

(٣) وهو خفاف بن عمير بن الحارث بن الشريد، وندبة اسم أمه ، وإليها ينسب ، وهو شاعر إسلامى روى له ابن قتيبة أخباراً فى الشعر والشعراء (١ / ٣٠٠) كما يورد البيت مع آخر هو :

أقول له والرمح يأطر متنه تأمل خفافا إنى أنا ذلكا

وراجع أيضاً : الأغانى ٢ / ١١١ ، واللسان ٤ / ٣٩٥ .

تعالى : (ما فَرَّطْنَا فِي الكِتابِ مِنْ شَيْءٍ) قال :مجازه ما تركنا ولا ضيعنا .

وخلاصة القول فى كتاب المجاز أنه كان خطوة فى سبيل الكلام فى طرق القول أو « المجاز » بمعناه العام ، وقد حاول أن يكشف عن بعض ماجاء من ذلك فى أسلوب القرآن . مع مقارنته بما جاء فى الأدب العربى . وساعد عليه محصوله الغزير فيه .

وقد حددت هذه المحاولة القول فى بعض المسائل والمشكلات فى أسلوب القرآن ، والتى صارت فيما بعد مسائل فى البيان العربى عامة ، كما أنها كانت ذات قيمة لغوية كبيرة أفادت بحوث اللغة .

٢ ــ معانى القرآن للفراء

يعتبر معانى القرآن للفراء دراسة مكملة ــ من الناحية اللغوية ــ لكتاب « مجاز القرآن » ، لأنه يبحث فى التراكيب والإعراب ، و « المجاز » يبحث فى الغريب والمجاز ، وكلتا الدراستين متعلقتان بالأسلوب ، واختلفت دراسة الفراء هنا عن دراسة أبى عبيده ، وكان لهذا الخلاف أسبابه التى سنراها عما قليل .

واسم الكتاب « معانى القرآن » ، لم يكن أول اسم أطلق على كتاب فى دراسات من هذا النوع كما كان المجاز مثلا ــ فيما نعلم[1] ــ .

ويبدأ بتفسير القرآن سورة سورة ــ بعد مقدمة قصيرة ــ بترتيب تنازلى يشرح ما فى الآيات من الغريب والإعراب والقراءات شروحاً مختلفة ، لغوية ونحوية وأخبارية وأدبية . وقد يبين أسباب النزول ثم يسند كلما وجد إلى السند سبيلاً .

ويرى أحد الباحثين أن الفراء أول من تناول تفسير القرآن بترتيب السور ،

(١) اهتم كثير من النحويين واللغويين فى القرون الثلاثة الأولى بوضع كثير من الكتب تحت أسماء « معانى القرآن » منهم هؤلاء : الكسائى ، والنضر بن شميل ، وقطرب ، والأخفش ... وغيرهم ، راجع طبقات الزبيدى ١٦ . وأيضا ذكر أصحاب التفسير أصحاب المعانى فإنهم يقصدون هؤلاء .

معتمداً على نص لابن النديم ليس قاطعاً[١] ، كما أن كتاب « المجاز » ينفي هذا الظن أو يشكك فيه .

منهج الكتاب :

يبدأ بسورة الفاتحة ... ثم البقرة ... وهكذا تنازلياً ، ويتعرض لآيات كل سورة آية آية بالترتيب -- فلم يقتصر على الغريب كما فعل أبو عبيدة -- شارحاً ومفسراً لغريب الألفاظ ويقف كلما استدعاه الأمر للوقوف ، لقراءة في آية يصححها أو ينفيها أو يضعفها ، ثم يفسرها تفسيراً نحوياً ، ويوجه ما يحتاج منها إلى التوجيه النحوي أو اللغوي ، ويأتي بالأمثلة والشواهد ثم يدرج المسألة جميعاً تحت قاعدة عامة .

ويتبع في تفسير الغريب قاعدة واحدة هي التي اتبعها أبو عبيدة من قبل تلك هي شرح الآية بالآية، ثم بالحديث — إذا تسنى ذلك ، ثم بالشاهد الشعري أو المثل ، أو الكلام الفصيح وإذا تعرض لأسباب النزول فإنما يروى بالسند عن أئمة المفسرين من الصحابة والتابعين . ومثال ذلك من الكتاب

تفسيره للآية : (أليس الله بكافٍ عَبْدَه) : فيقول « قرأها يحيى بن وثاب وأبو جعفر المدني « أليس الله بكاف عباده على الجمع ، وقرأها الناس — عبده — ، وذلك أن قريشاً قالت للنبي صلى الله عليه سلم ماتخاف أن تحملك آلهتنا لعيبك إياها فأنزل الله تبارك وتعالى : (أليس الله بكافٍ عَبْدَه) محمداً صلى الله عليه فكيف يخوفونك من دونه ؟ والذين قالوا عباده قالوا قد همت أمم الأنبياء بها ووعدوهم مثل هذا فقالوا لشعيب : (إنْ نقولُ إلا اعتراك بعضُ آلهتنا بسُوء) فقال الله تبارك وتعالى : (أليس اللهُ بكافٍ عباده) ، أي محمداً ، الأنبياء قبله صلى الله عليهم وسلم . وكلٌّ صواب .

(١) راجع في ذلك رأي أحمد أمين في ضحى الإسلام — ٢/١٤١ .

ويهتم الفراء بالقراءات فيعرض لها فى الآية مبيناً وجهة نظر كل قارئ مفسراً قراءته . وقد تتعدد القراءات وتتعدد آراء المفسرين ، فيفاضل بين آرائهم مختاراً ما يراه قريباً من الصواب . ويرى أن السّق فى الآية يوجب الترجيح لقراءة ما ، أو التصحيح للفظ ، مثل قوله فى تفسير الآية : (حتّى إذَا بلغَ أشُدَّه)[1] فيورد بعض الأقوال فى تفسير الأشُدّ ويتبعها بقوله : « والأولُ أشبَهُ بالصّواب لأن الأربعين أقرب فى السّق إلى ثلاث وثلاثين منها إلى ثمانى عشرة ، ألا ترى أنك تقول : أخذت غالية المال أو كله . فيكون أحسن من أن تقول أخذت أقل المال أو كله » .

ويطرح ما لا يتفق وكلام العرب من القراءات ، وما يختلف مع التفسير ، ومثال ذلك ما قال فى الآية (ولا يُسْأَلُ حميمٌ حَميماً)[2] لا يقال لحميم أين حميمك ، لست أشتهى ذلك لأنه مخالف للتفسير ، لأن القراء مجمعون على يسْأل .

ويغلب النقل على الكتاب ، والتفسير المأثور ، وكثيراً ما يذكر فى ختام كلامه عبارة ، وبذلك جاء التفسير ، أو ، جاء فى التفسير كذا . أو — وذكر المفسرون — . هذا إذا لم ينص على صاحب التفسير أو يسنده إليه .

وينقل عن أئمة المفسرين والصحابة ، فينقل عن على بن أبى طالب ، وابن عباس والحسن البصرى ، وقتادة والسدى ، ومن الإخباريين عن ابن الكلبى وغيرهم . ولا يظهر اجتهاده ورأيه إلا فى شرح معانى الغريب ، أو توضيح إعراب أو بيان إعلال أو إبدال ، أو تغيير ما فى اللفظ أو العبارة .

ويقلل من الشاهد الشعرى ، فلا يفسر به الآيات تفسيراً مباشراً ، ولا يحتج على معنى الآية بمعنى البيت ، لكنه يأتى بالبيت لتوضيح المعنى اللغوى القريب الذى لا شبهة وراءه . ولا يعنى تزمته هذا جموداً ، إذ أنه كثيراً ما يخرج عن جماعة المفسرين واللغويين ويعتمد على رأيه الشخصى ، الذى توصل إليه بمدارسة

(١) الأحقاف ١٦ .
(٢) المعارج ١٠ بالقراءة التى بضمها ضم الياء .

كلام العرب وسنَنهم وطرقهم فى التعبير ، من ذلك ما قيل فى قوله تعالى: «ولمنْ خافَ مقَامَ ربِّه جَنَّتان) ويقول : « ذكر المفسرون أنهما جنتان بستانان من بساتين الجنة ، وقد يكون فى العربية جنة واحدة تثنيها العرب فى أشعارها . أنشدنى بعضهم :

ومَهْمَهَيْن قذَفيْن مرتَيْنِ قطعته بالأم لا بالسَّمْتَين[1]

يريد مهمها وسمتاً واحداً ، وأنشدنى الآخر :

يسعى بكَبْداء ولهْذَمَين قد جعل الأرطاة جُنتين »

وقد يأخذ بظاهر اللفظ ، فيفهم معنى الصورة البيانية فى الآية فهماً مادياً ظاهرياً ، قال فى الآية : «(فى سِلْسِلَةٍ ذرْعُها سبْعُونَ ذِراعاً فاسْلُكُوه). ذُكر أنّها تُدخَلُ فى دبر الكافر فتخرج من رأسه ، فذلك سلكه فيها[2] ، وفى الآية (تَدْعُو من أدْبَرَ وتولَّى) تقول للكافر يا كافر يا منافق إلىّ ، فتدعو كل واحد باسمه »[3] . ولا يرى الفراء أن الدعاء هنا مجازى بالنسبة لجهنم ، وهو دعاء معنوىّ بلسان الحال لا بالقول واللسان .

ويغلب على الكتاب الطابع النحوى ، وهذا طبيعى من إمام النحويين الكوفيين فى عصره ، وكثيراً ما نراه يقف — كلما سنحت فرصة — ليوضح الجانب النحوى ، والإعراب فى الآية ، وينتهى إلى النظرية العامة ، فيبين قواعدها وأصولها ، وأدلتها وأسبابها ومسبباتها ، ففى تفسيره لقوله تعالى : (ويومَ القيامةِ ترَى الَّذِين كذَبُوا على اللهِ وجُوهُهُم مسوَدَّةٌ)ترفع وجوههم ومسودة، لأن الفعل وقع على الذين ثم جاء بعد الذين اسم له فعل فرفعته بفعله وكان فيه

(١) معانى القرآن ن . نور عثمانية ص ٧٠ أ « ويروى فى اللسان (٢/٣٥١) : قطعته بالسمت لا بالسمتين » .

(٢) معانى القرآن ن . نور عثمانية ص ١٠٣ — ب .

(٣) نفس المصدر — ١٠٥ — أ .

معنى نصب ، وكذلك فافعل لكل اسم أوقعت عليه الظن . والرأى ، وما أشبههما ، فارفع ما يأتى بعد الأسماء إذا كان فيها أفاعيلها بعدها ، كقولك : رأيت عبدالله أمره مستقيم فإن قلت الاستقامة نصبتها ورفعت الاسم فقلت : رأيت عبدالله مستقيما أمره ، ولو نصبت أمره فى المسألة الأولى على التكرير كان جائزاً فتقول : رأيت عبد الله أمره مستقيم ، وقال عدى بن زيد :

ذَرِينى إن أمْرَك لن يُطاعا وما ألفيْتِنى أمْرِى مُضَاعا

وكما يوجه عنايته للنحو والإعراب ، يعنى بالصرف وبناء الألفاظ ، مثل قوله فى الآية : (وقالوا مجنونٌ وازْدُجِر) : «زُجِرَ بالشئ ، وازدُجِرَ افتُعِلَ من زَجَرْتُ ، وإذا كان الحرف أوله زاى صارت تاء الافتعال فيه دالا . فقس عليه ما ورد[1] .

ويحكّم القاعدة الصرفية فى تصحيح القراءات أو رفضها . يقول : حدثنى مسلم بن أبى سارة قال : كان جارى زهير الفرق يقرأ : (متّكِئينَ على رَفارف خُضْرٍ)[2] . فالرفارف قد تكون صواباً ، وأما العباقرى فلا لأن ألف الجماع لا يكون بعدها أربعة أحرف ولا ثلاثة[3] .

تلك هى الاتجاهات اللغوية والنحوية الغالبة على الكتاب ، ولا نعدم بينها أثراً لفهم أدبى لتعبير أو صورة بيانية . وهذه أمثلة لذلك .

(١) معانى الفراء (مخطوط) ٦٣ ب كلية الآداب .
(٢) فى قوله تعالى متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان » .
(٣) معانى الفراء (مخطوط) ٧٣ ب كلية الآداب .

بعض ما جاء فى كتاب المعانى من الدراسات البيانية

الكناية :

ورد هذا التعبير فى مواضع عديدة من الكتاب ، وهو يدل عنده بصفة عامة — على المعنى المعروف فى البلاغة ، والذى أشرنا إليه عند أبى عبيدة . والظاهر أن هذا التعبير لكثرة ما ورد فى اللغة ، وكلام الناس ، فى عصور متقدمة كان معروفاً عندهم فالكناية ضرورة تعبيرية ، للتعبير عما لا يراد إظهاره للناس كرهاً لنبوه عن الذوق ، أو لما فيه من كشف عن غير مستحب كشفه ، أو محاولة للتأنق والإغراب فى التعبير . وهى بهذا المعنى معروفة عند قدماء اللغويين . وها هو ذا صاحب « معانى القرآن » يدعم هذا القول فيرى فى الكناية ما رآه أبو عبيدة ، وقرره ابن قتيبة والمبرد .

يفسر قوله تعالى (. . . سَمْعُهُمْ وأَبْصارُهُمْ ، جُلُودُهُمْ) الجلود هنا — والله أعلم — الذكر ، وهو مما كنى به الله عز وجل عنه ، كما قال : (أَوْجاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الغائِطِ) والغائط الصحراء ، والمراد من ذلك أو قضى أحدكم حاجة ، كما قال . (ولكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا) يريد النكاح .

والكناية عنده - أيضاً — بمعنى الستر ، أو الإخفاء عامة ، فهى إخفاء معنى كما فى الأمثلة السابقة ، أو إخفاء لفظ أو استبدال غيره به ، كما أخفى القول وجىء مكانه بالكتاب فى قوله تعالى : (كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنا ورُسُلِي) فالكتاب يجرى مجرى القول . وقد يخفى اللفظ ويبدل به ضمير مثلما فى قوله : (والنَّهارِ إذا جَلاها) جلاَّ الظلمة ، فجاز الكناية عن الظلمة ولم تذكر لأن معناها معروف ألا ترى أنك تقول : أصبحت باردة ، وأمست باردة وهبت شمالاً ، فكنى عن مؤنثات لم يجر لهن ذكر لأن معناهن معروف .

التشبيه والمثل :

وهذان اللفظان أيضاً من أول الاصطلاحات التى بدأت تظهر فى الدراسات القرآنية دالة على صور بيانية ، لكنها لا تزال عند القراء — كما كانت عند أبى عبيدة — تطلق فى حدود المعنى اللغوى وإن كانت تشير إلى المعنى البلاغى .

من ذلك :

١ — (ذلكَ مَثَلُهُم فى التَّوراةِ ومَثَلُهُم فى الإنْجيل) يقولَ «وفى الإنجيل أيضاً» كمثلهم فى القرآن ، ويقال : (ذلكَ مَثَلُهُم فى التَّوراة) و (مَثَلُهم فى الإنجيلِ كزرْعٍ أخْرَجَ شطْأَه) وشطوْه السنبلة ، تنبت الواحدة عشراً وثمانية وسبعة فيقوى بعضه بعضاً ، فذلك قوله «آزره ، وقواه . فاستغلظ ذلك فاستوى ، ولو كانت واحدة لم تقم على ساق . وهو مثل ضربه الله عز وجل للنبى إذ أُخرج وحده ثم قواه الله بأصحابه كما قوى الحبة بما نبت فيها.

٢ — (فإذَا انشقَّت السَّماءُ فكانَتْ وردةً كالدِّهان) أراد بالوردة الفرس ، والوردةُ تكونُ فى الربيع إلى الصفرة أميل ، فإذا أشتد البرد كانت وردية حمراء ، فإذا كان بعد ذلك كانت وردة إلى الغبرة أميل ، فشبه تلون السماء بتلون الوردة ، وشبهت الوردة فى اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه . ويقال إن الدهان الأديم الأحمر[1] .

٣ — وقوله عز وجل : (كمثل الحِمَارِ يحمل أسْفارًا) . . والسِّفر واحد الأسفار ، وهى الكتب العظام . شبه اليهود ومن لم يسلم — إذ لم ينتفعوا بالتوراة والإنجيل — وهما دليلان على النبى صلى الله عليه — بالحمار الذى يحمل كتب العلم ولا يدرى ما عليه .

---

(١) معانى القرآن ن . نور عثمانية ص ١٧٠ .

فى المثال الأول ينقل قول المفسرين فى مثل القرآن ، وهو القول القديم الذى لم يحدد فيه دور التشبيه فى البيان ، ولم توضع أصوله أو تفرد أركانه ، ولكنه فى المثلين التاليين قد أحسن فهم الدور الذى يقوم به التشبيه فى التعبير ، فنراه فى المثال الثانى قد أجاد إدراك التشبيه بأقسامه ، وعرف أنه مركب هنا من قسمين أو صورتين متعاقبتين صورة السماء منشقة ، وصورة الوردة ثم صورة الدهان . والصورتان الأخيرتان مركبتان لتوضيح وجه الشبه . والفراء يوضح معنى المشبه به فى هاتين الصورتين ، فيوضح معنى الوردة وينبه إلى وجه الشبه وهو أحوال تلونها ، فهى فى الربيع صفراء ، وفى الشتاء حمراء ، ثم غبراء داكنة عند الذبول . وهذا التلون التدريجى من اللون الناصع إلى الداكن يشبه أيضاً لون الدهن وقد عملت فيه النار فاشتعل بلون أصفر ثم بدت ألسنته محمرة إذ آذن بالانطفاء ثم يتحول إلى سواد داكن .

وعمل فى المثال الثالث عمله فى المثال الثانى فشرح الغريب ثم وضح أركان التشبيه والعلاقة بين المشبه والمشبه به ووجه الشبه .

وتعتبر هذه المحاولة فى فهم التشبيه جديدة وخطوة متقدمة عن فهم أبى عبيدة له ، وهو الذى لم يشر إلى التشبيه غير إشارات عابرة باعتباره مجازاً ، ولم يفصل فيه تفصيل الفراء عن فهم ودراية .

المجاز :

يتكلم الفراء عن المجاز بالمعنى اللغوى الذى رأيناه بوجه عام فى مجاز القرآن ، وقد يتطرق إلى المجاز المعنوى حسب الاصطلاح البلاغى ، وعند التعبير عن كليهما يستعمل لفظ مجازه أو إجازته فيقول فى الآية «فسنيسره للعسرى» فهل فى العسرى تيسير ؟ فيقال فى هذا إجازته بمنزلة قوله تبارك وتعالى : ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ والبشارة فى الأصل على المفرح والسار فإذا جمعت فى كلامين هذا خير وهذا شر جاز التيسير فيهما جميعاً (١) .

(١) معانى القرآن ص ١٤٠ ن كلية الآداب .

الاستعارة :

ولا ينص عليها كتابة هنا ، كما لم ينص عليها أبو عبيدة من قبل ، ولم يستعملها الجاحظ كذلك فى دلالتها الدقيقة ، وكان يستعمل معها كلمة تمثيل أو بدل ولو أنها قد تجىء فى بعض النصوص عنده دالة على الاصطلاح البلاغى أو قريباً منه . وأفرد لها ابن قتيبة باباً فى « مشكل القرآن » . وهذا كله يدل على أن استعمال تعبير استعارة لم يكن يطلق على المعنى البلاغى المفهوم إلا بعد مرحلة

أبى عبيدة والفراء - على الأرجح - أى بعد مطلع القرن الثالث بربع قرن تقريباً . وقد شاع استعمال هذا التعبير بعد ذلك .

وكثيرا ما يتعرض الفراء لمواطن الاستعارة فى القرآن ولكنه لم ينص عليها ، وأوضح مثال لذلك حين تعرض لقوله تعالى : (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ) القراء مجمعون على رفع الياء . حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال وحدثنى ... عن ابن عباس أنه قرأ يوم تكشف عن ساق يريد يوم القيامة والساعة لشدتها ، قال وحدثنى بعض العرب لحد طرفة :

كَشَفَتْ لهمْ عن سَاقِهَا وبدَا منَ الشَرِّ البُراح

وتنبه الفراء إلى أن الصورة البيانية هنا تعبر عن الشدة ، ولم يسم الصورة بالاستعارة . ولم يشأ الفراء فى هذا الموقف أن ينفرد بالتفسير بل روى عن ابن عباس لكى لا يقع فى التشبيه فيقع فى الحرج .

وكان لميل الفراء إلى الكلام والأخذ بآراء المعتزلة أثر فى « معانى القرآن » فهو يأخذ على أهل القدر — وهم أهل السنة هنا — أو القائلون بأن كل أعمال الإنسان إنما هى بقدر مكتوب يقول فى قوله عز وجل : (ويُؤَخِّرْكمْ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى) مسمى عندكم تعرفونه و « لا يميتكم غرقاً ولا قتلا » وليس فى هذا حجة لأهل

القدر لأنه أراد مسمى عندكم[١] .

ومن آرائه الكلامية أيضاً تفسيره لأفعل التفضيل فى القرآن: (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) يقول «عندكم . فى معرفتكم» لكى لا يفهم أن عند الله هيناً وأهون ، إذ الأمر عنده سواء ومنه أيضاً الاستعمال المجازى لكلمة سنفرغ فى قوله تعالى: (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ) حدثنا الفراء قال : حدثنا أبو بكر إسماعيل قال : سمعت طلحة يقرأ «سيفرغ لكم» ويحيى بن وثاب كذلك، والقراء بعد — سنفرُغُ لكم بضم الراء وبعضهم يقرأ سيُفرغ لكم بضم الياء وهذا من الله عز وجل وعيد لأنه تبارك وتعالى لا يشغله شىء ، وأنت قائل للرجل الذى لاشغل له قد فرغت لى ، قد فرغت لشتمى ، أى قد أخذت فيه وأقبلت عليه .

ويتعرض الفراء بعد ذلك لأبحاث متنوعة فى الأسلوب، فيتكلم عن الاستفهام وخروجه أحياناً إلى معان أخرى كالتوبيخ فى قوله تعالى : (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كفرُوا على النَّار أَذْهَبْتُمْ طيِّباتِكمْ فى حياتِكُم الدُّنيا) [٢] يقول «قرأ الأعمش وعاصم ونافع والمدنى بغير استفهام وقرأ الحسن وأبو جعفر المدنى بالاستفهام . أأذهبتم ، والعرب تستفهم بالتوبيخ ولا تستفهم» .

والانتقال من مخاطبة الشاهد إلى الغائب فى قوله عز وجل (كَلاَّ بل تُحبُّون العَاجِلَةَ وتذرُون الآخرة) رويت عن على بن أبى طالب رحمه الله بل تحبون بالتاء وقرأها كثير «بل يحبون» بالياء والقرآن يأتى على أن يخاطب المنزَّل عليهم، وأحياناً يجعلون كالغيب كقوله : (حتَّى إذا كنتُمْ فى الفُلْكِ وجرَيْنَ بهِمْ بريحٍ طيبة) .

والتقديم والتأخير ، قوله عز وجل :(فجعلَه غُثاءً أحْوَى) إذا صار النبت

(١) معانى القرآن ص ١٤٠ ن كلية الآداب .

(٢) الاحقاف ٢١/٢٠ .

يبيساً فهو غثاء وأحوى الذى قد اسود من العنق ويكون أيضاً أخرج المرعى أحوى فجعله غثاء فيكون مؤخراً معناه التقدم .

ويتنبه إلى ألوان أخرى من الرخص فى القول — المجاز — وتحول بعض الألفاظ عن معانيها على مثال ما قرره أبو عبيدة ، فيتكلم عن البعض يراد به الكل[1] ، والإخبار عن الواحد بالاثنين[2] ، أو الجمع ، واستعمال اللفظ فى معنى الضد . يقول فى الآية : (متكئينَ على فُرُشٍ بَطَائِنُها مِن إستبرقٍ) والإستبرق ما غلظ من الديباج ، وقد تكون البطانة ظهارة والظهارة بطانة فى كلام العرب ، وذلك أن كل واحد منها قد يكون وجهاً ، وقد تقول العرب — هذا ظهر السماء ، وهذا بطن السماء ظاهرها الذى نراه .

قال : « وأخبرنى بعض الأعراب المحدثين عن ابن الزبير يعيب قتلة عثمان رحمه الله فقال : خرجوا عليه كاللصوص من وراء القرية فقتلهم الله عز وجل شر قتلة ونجا من نجا منهم تحت بطون الكواكب . يريد هربوا ليلاً فجعل ظهور الكواكب بطونها ، وذلك جائز على ما أخبرتك به » .

وقد يقوم الفاعل مقام المفعول ، قوله عز وجل : (فى عِيشَةٍ راضِيَةٍ) فيها الرضا ، والعرب تقول : هذا ليل نائم ، وسر كاتم ،وماء دافق ،فيجعلونه فاعلا وهو مفعول ، فى الأصل ، وذلك أنهم يريدون وجه المدح أو الذم .

والحذف . يعالجه الفراء فى الآية ولكن بتعريف آخر هو سقوط المضمر ، والإشارة إليه تأتى أثناء تناوله لمسألة نحوية — الفاء فى جواب أما — فى قوله تعالى: (وأمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ . .) أضمر القول ،فيقال أفلم ، ومثله (وأمَّا الَّذِين اسودَّتْ وجوهُهم أكَفَرْتُم) ذلك أن أما لا بد لها من جواب بالفاء ولكنها سقطت كما سقط الفعل المضمر .

---

(١) معانى القرآن ٩٩ .

(٢) معانى القرآن ٩٦ .

ونلاحظ أنه تناول الحذف من الوجهة النحوية .

ويطرق الفراء أبواب أبحاث لغوية عامة تتصل بمعانى الألفاظ وليست بالإعراب وحده . من ذلك كلامه عن التكرار ، وما قد يقصد به فى القرآن من التخويف، مثل ما فى قوله تعالى: (كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثم كلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ) الكلمة قد يكررها العرب على التغليظ والتخويف وهذا من ذاك ،وقوله عز وجل: (لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ ثمَّ لترَوُنَّها عَيْنَ اليقِينِ) مرتين من التغليظ. أيضاً .

ويتعرض للغات المختلفة فى أساوب القرآن ، فيرى أن القرآن يأتى باللغتين المختلفتين ألا ترى قوله تعالى : (تُمْلى عَلَيْهِ) وهو فى موضع آخر (فَلْيكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ) ، ولم تحمل إحداهما على الأخرى فتتفقا .

ومن لطائف أسلوب القرآن التى يذكرها الفراء ، أسماء العذاب والقيامة ، يقول قوله عز وجل : (تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بها فَاقِرةٌ) والفاقرة الداهية وقد جاءت ألفاظ القيامة والعذاب بمعانى الدواهى وأسمائها .

وهذه التفاتة طريفة من الفراء ، لتنبهه إلى ما لهذا الاستعمال القرآنى من أثر فى نفوس العرب ، إذ يثير بهذه الألفاظ استدعاءات وجدانية تروع الناس وتخوفهم ، لأنهم اعتادوا أن يقرنوا بين هذه الألفاظ وبين مداولاتها من الدواهى وجاءت فى القرآن تؤدى دورها فى إثارة معانى الفزع والخوف ، وتعويد النفوس رهبة يوم القيامة لتبتعد عن المعاصى وتترك الذنوب .

نظم القرآن ووزنه :

لم ينتبه أبوعبيدة للناحية الموسيقية فى نظم القرآن والتوقع الرتيب فيه ، مما جعل له نفعاً معيناً ، وأثراً موسيقياً فعالا فى النفوس .ولا ينفى هذا التجاهل من أبى عبيدة إدراك الناس على عهده لهذه الخاصة ، ومراعاتهم لرصف الكلام فى

وحدات صوتية تتبع نظاماً رتيباً يساير وقعه المعنى العام فى السورة القصيرة ، أو مجموعة بعينها من الآيات .

وقديماً تنبه العرب إلى وزن القرآن ، فقارنوه بوزن الشعر ، وإيقاع سجع الكهان ولكن هذه الملاحظات سكتت لسبب أو لآخر . ولعل هذا السكوت عن البحث فى نظم القرآن من هذه الناحية يرجع إلى انصراف الناس إلى المعانى وما تحمل من تشريع وعقيدة ، وهو جل اهتمامهم فى ذلك الوقت .

ومهما يكن من شىء فالحديد فى كتاب القراء والجدير بالاهتمام أنه لاحظ هذا النسق الصوتى ، وحاول أن يتتبعه . ونراه فى ملاحظاته التى أوردها مدركاً تماماً لوزن القرآن . مدركاً العناية التى عمد إليها فى التزام وزن بعينه . وهو الترابط بين الكلمات وانسجام النغم ، وتوافق الفواصل فى آخر الآيات . وإذ تسترعى انتباهه هذه الظاهرة يحاول أن يضبطها ويقارنها بما عرف عند العرب من أوزان الشعر .

وهو إذ يحاول أن يقارن بين وزن الشعر ووزن القرآن لا يذهب بعيداً . بل يريد أن يقول إن للقرآن ما للشعر والكلام الموزون من صفات ، ومن هذه الاعتبارات المتصلة بالنظم تجاوب الكلمات مع وزن الآية ومراعاة رءوس الآيات للنسق .

وقد ذكر فى تفسير قوله تعالى : (ولِمَنْ خَافَ مقامَ ربِّه جنَّتان) [1] أن الشعر له قوافٍ يقيمها الوزن والزيادة والنقصان فيحتمل ما لا يحتمله الكلام » [2] .

ولا يوافق القراء على التفسير اللغوى الحرفى للجنتين بمعنى بستانين ، بل يرى — كما هو واضح — هذه التثنية بمعنى الإفراد وهو تماثل إليه القرآن مراعاة للنظم كما يراعى ذلك فى الشعر لإقامة القافية .

ويستطرد فى هذا الرأى كلما تقدم فى تفسير السور الصغيرة المكية — غالباً —

(١) راجع ما سبق ص ٢٦ .
(٢) معانى القرآن للفراء — كلمة الآيات ٧٠ .

التى تمتاز بتغلب هذا الطابع عليها أكثر من غيرها ، ونبه إليها كثير من الباحثين والمستشرقين ، فقال بعضهم إن الطابع الشعرى غالب فى هذه السور ، وقال آخرون إن القرآن كان يلتزم (السجع) فى مواطن الوعظ للترهيب أو الترغيب .

ويقول الفراء فى قوله تعالى : (تَرمِي بشرَرٍ كالقَصْرِ) « كالقصر يريد القصر من قصور مياه العرب ، وتوحيده وجمعه عربيان ، قال الله تبارك وتعالى : (سيُهْزَمُ الجمْعُ ويولُّون الدُّبُرَ) معناه الأدبار ، وكأن القرآن نزل على ما يستحب من كلام العرب من موافقته المقاطع ، ألا ترى أنه قال : (إلى شيء نُكُرٍ) ، فثقل فى اقتربت لأن آياتها مثقلة ، قال : (فحَاسبْنَاهَا حِسَاباً شَديدًا وعَذَّبناهَا عَذَاباً نُكْرًا) فاجتمع القراء على تثقيل الأول وتخفيف هذا ومثله (والشَّمس والقَمَرُ بحُسْبَانٍ) ، وقال: (جزَاءً مِنْ ربِّكَ عَطَاءً حِسَاباً) فأجريت رءوس الآيات على هذه المجارى ، وهو أكثر من أن يضبط ، ولكنك تكتفى بهذا منه إن شاء الله» . ثم يقول: «ويقال كالقَصر[1] كأصول النخل ، وليست أشتهى ذلك لأنها من رءوس الآيات مع آيات مخففة» .

ويقول «حدثنى مندل عن مجاهد عن ابن عباس أنه قرأ ناخرة ، وقرأ أهل المدينة نخرة ، وناخرة أجود الوجهين فى القراءة لأن الآيات بالألف ، ألا ترى أن ناخرة ، والحافرة والساهرة أشبه بمجيء التنزيل ؛ والناخرة والنخرة سواء فى المعنى بمنزلة الطَّامع والطَّمع ، والباخل والبخل» .

فالكلمتان عنده مستويتان فى المعنى ، والنظم القرآنى يختار ما يتفق والمقاطع أو الفواصل — رؤوس الآيات — وينسجم مع النسق الموسيقى العام فى آيات السورة ، فإذا كانت الفواصل كلها بالألف فإن القراءة الأصح لناخرة بالألف لأنها أشبه بمجيء التنزيل كما يقول . لموافقة هذه القراءة الأخيرة لرءوس الآيات فى السورة .

(١) القصر محركة أصول النخل المحيط .

وتارة يسمى هذا التوافق الصوتى — استقامة فى القراءة — فيقول : « وقوله عز وجل : (واللهُ أعْلَمُ بما يُوعُون) الإيعاء ما يجمعون فى صدورهم من التكذيب والإثم والوعى . لو قيل « واللهُ أعلمُ بما يَعُون » لكان صواباً ، ولكنه لا يستقيم فى القراءة .

أى لا يستقيم مع ماقبله من الآيات (فما لهمْ لا يُؤْمنون . وإذا قُرِئَ عليهمُ القرآنُ لا يَسْجُدُون . بل الذين كفَرُوا يكَذِّبون . والله أعلم بما يوعون) .ولعل الفراء يقصد إلى أن لفظ يعون لا يستقيم مع رءوس الآيات الأخرى لأنه مفتوح الأول دون غيره المضموم الأول ، يؤمنون ، يكذبون ، يوعون . ثم لعله يشير إلى الوزن الموسيقى للكلمة ، فهو فى « يوعون » أكثر اتفاقاً منه فى « يعون » ، لأن « يعون » ينقصها حرف ساكن ، وكل من الفواصل الأخرى مكون من ستة حروف على النظام التالى :

(— ٥ — — ٥٥ ، — ٥ — — ٥٥ ، — — ٥ — — ٥٥)

وكلمة يوعون (— ٥ — ٥٥)

والضم فى أول يَسْجُدُون يطغى على الفتح أولا ويكاد يغلبه ولا يظهره ، فتصبح الكلمة فى نغمها شبيهة بغيرها ومتسقة والنظام العام للكلمات أى (— ٥ — — ٥٥)

والصم فى هذه الآيات هو النغمة السائدة — أو المفتاح الموسيقى — لها .

والنظم القرآنى حريص على هذا التوافق ، فقد يعدل عن لفظ إلى آخر ، بل من صيغة إلى أخرى ، كما يعدل عن المفعول إلى الفاعل فى قوله تعالى : (مِنْ ماءٍ دافِقٍ) يقول الفراء « أهل الحجاز أمثل لهذا من غيرهم ، أن يجعلوا المفعول به فاعلا إذا كان فى مذهب تعد كقول العرب : هذا سر كاتم ، وهم ناصب ، وليل نائم ، وعيشة راضية وجاءت على هذه الصيغة لأنها توافق رءوس الآيات التى هى منهن » .

وقد يجيز النظم القرآنى حذف أواخر الكلمات موافقة لرءوس الآيات مع موافقة ذلك كلام العرب مثل قوله عز وجل : (والليل إذا يسْر) ذكروا أنها ليلة

المزدلفة ، وقد قرأ القراء يسرى — بإثبات الياء — ويسر — بحذفها — ، وحذفها أحب إلىّ لمشاكلتها لرءوس الآيات ولأن العرب قد تحذف الياء وتكتفى بكسر ما قبلها منها . أنشدنى :

كفّاكَ كفٌّ ما تَليقُ دِرْهماً جُودًا وأُخْرَى تُعْطِ بِالسَّيفِ الدَّمَا

وأنشدنى الآخر :

ليسَ يُخْفِى يسارُنى قدرُ يوم ولقد يُخفِ شيمتى إعسارِى

وقوله بطغواها [1] — أراد بطغيانها ، إلا أن الطغوى أشكل برءوس الآيات فاختير لذلك ، ألا ترى أنه قال : (وآخر دعواهُم أنِ الحمدُ للهِ) : ومعناه آخر دعائهم وكذلك : (دعْواهُم فيها سُبحانكَ اللّهُمَّ) دعواهم فيها هذا . و (وَمَا قَلَى) يريد ما قلاك فألقيت الكاف كما تقول : قد أعطيتك وأحسنت ، معناه وأحسنت إليك فيكنى بالياء الأولى من إعادة الأخرى ، ولأن رءوس الآيات بالياء ، فاجتمع ذلك فيه . . . إلخ [2] . وقوله عز وجل : (فَأَغْنَى) و : (فَآوَى) [3] راد به فأغناك وفآواك ، جرى على طرح الكاف لمشاكلة رءوس الآيات .

ويجيز أحياناً إضافة المصدر إلى صاحبه مثل ما فى قوله تعالى : (إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا) قال الفراء : « فأضيف المصدر إلى صاحبه . وأنت قائل فى الكلام لأعطينك عطيتك ، وأنت تريد عطية . وكان قربه من الجواز موافقة رءوس الآيات التى جاءت بعدها »[4] .

وهكذا وضع الفراء أمامنا قواعد عامة للتغيرات التى يمكن أن تطرأ على الكلمات ، والتى قد يعمد إليها القرآن أحياناً للتوافق الموسيقى فى نظمه . وصلة

(١) فى قوله تعالى « كذبت ثمود بطغواها » س الشمس ١١ .
(٢) معانى القرآن — مخطوط س ١٣٩ ن . كلية الآداب .
(٣) معانى القرآن — س ١٣٩ ن . كلية الآداب .
(٤) معانى القرآن — س ٢٤٥ ن . كلية الآداب .

تلك التغيرات بما يطرأ على القافية فى الشعر لإقامة الوزن . ولا يفتأ الفراء يشير إلى أن القرآن فى عدوله عن لفظ إلى آخر ، أو تعديله للألفاظ لا يخرج عن أساليب العرب ، وفنون القول عندهم . وخاصة فى الشعر وهو الكلام الموزون الذى يشابه ما فى نظمه من توافق وانسجام ما يراعيه أسلوب القرآن .